الباب السادس

استراتيجية سبأ/ الزمر للثراء

قال الله تعالى لنبيه الكريم:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

استراتيجية سبأ / الزمر للثراء:

الشكر / الدعاء:

قال الله سبحانه:

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٢٤].

وعن (زياد بن عِلاقة) عن عمه (قطبة بن مالك) ﷺ قال:

كان النبي ﷺ يقول:

"اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء".

رواه (الترمذي).

المخلوقات بطبيعتها تحتاج إلى من يليها ويتعهدها بالرعاية والحماية.. وهذا ما تكفل به خالقها.. وربها..

فـ(الرب) – لغةً – هو: القيِّم والمدبر..

و "ربَّ الولدَ ربًّا": أي وَلِيَهُ وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه..

وإذا ما طالعنا أبحاث علماء النفس ودراساتهم حول أهم الخصائص التي يجب أن يوفرها "رب الأسرة" لأسرته، وجدناهم يجمعون على خاصتين أساسيتين:

الأولى: توفير الطعام، والثانية: توفير الأمان..

فرب الأسرة واجب عليه إطعام أسرته وتوفير الأمان لهم..

وإذا ما تدبرنا آيات القرءان الكريم وجدنا ما يوضح هذه الحقيقة..

فالله رب العالَمين تكفل لخلقه بهاتين الخاصتين..

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ ﴾[الأنعام: ١٢]

فهو الرحيم الرحمن سبحانه..

ومتى وجِدتْ الرحمة كان الأمان معها..

ويقول سبحانه:

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ﴾[الأنعام: ١٤].

هذا.. وعندما ترك سيدنا (إبراهيم) – عليه الصلاة والسلام – زوجته (هاجر) وابنه (إسماعيل) في (مكة) وهي يومئذٍ ليس فيها أحد من البشر يؤنسهم ولا ماء يرتوون به..

رأى وهو رب الأسرة أنه لن يستطيع إطعامهم وتوفير الأمان لهم..

فدعا رب العالَمين قائلًا:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ولهذا.. وضَّح الله جلَّ وعلا هذا الأمر لـ(قريش) غاية التوضيح..

حتى يعلموا أن لهم ربًا فيعبدوه وحده ويتركوا عبادة غيره، فقال سبحانه:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا

﴿ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۢ﴾ [قريش: كاملة].

ولما كان الأمر هكذا، وجب على المربوب شُكر ربه..

لهذا.. من الآداب الراقية والحكمة البالغة أن وصَّانا رب العالمين بوالدينا فقال:

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: ١٤].

فوصانا بشكره وشكرهما..

جزاءً لهم على صنيعهم في توفير الطعام والأمان لنا طوال عمرهم..

هذا بالنسبة للشكر..

أما العبادة فهي لله وحده..

﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

الكلمة القرآنية (ربياني) تفيد أن كل من الأب والأم هما مصدر الطعام والأمان لصغارهما..

لأن الأب ربٌ لأسرته.. والأم ربة لمنزلها..

وهذا هو جوهر "التربية"..

مما سبق نستخلص أمرًا بالغ الأهمية عن الإنسان وربه سبحانه..

وهو أن الإنسان يجب عليه شيئان نحو ربه سبحانه:

الأول: الشكر.. والثاني: العبادة..

وكلاهما في صالح وخير الإنسان وحده..

لأن الرب سبحانه لا تنفعه طاعة.. ولا تضره معصية..

وهذا ينقلنا إلى موضوع هذا الباب..

الشكر والعبادة..

وهما يكونان أفضل استراتيجية للوصول إلى الغنى والثراء.. لكل البشر..

في السطور القادمة سنناقش بالتفصيل والإيضاح هذين المحورين لتلك الاستراتيجية الفذة..

وأنه لا غنى لمن أراد الثراء والاستمتاع عنهما..

١) المحور الأول: استراتيجية (الزمر) = الدعاء..

(وهي الاستراتيجية التي تجعلك تحقق الغِنى والثراء)

لتحصل على أى نعمة تريدها: ادعُ..

اطلب من ربك..

يعطك ما طلبت متفضلًا..

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

والدعاء يكون في الرخاء ويكون في الشدة..

وأخلص ما يكون الدعاء عندما يكون الإنسان في شدة..

حينئذٍ يتوجه بكل كيانه إلى ربه سبحانه..

فيستجيب ربه له..

يقول الرب جلّ وعلا عن نفسه وعن حال الإنسان في الرخاء والشدة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

أن تدعوا الله وأنت متوجه إليه بكل كيانك..

وأنت على يقين تام بأن كل ما تريده بيده سبحانه..

وأنه سيعطيك كل ما طلبت..

هذا هو الإخلاص..

﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

الإخلاص..

الذي يجب أن يستحضره الإنسان عندما يدعو..

سواء دعا في الشدة..

أو في الرخاء..

فالدعاء هو السبب الذي يلتمس به الإنسان تحقيق أمانيه وتجسدها في عالم الواقع..

والإخلاص لله في الدعاء هو سبب تحقيق الدعاء..

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

هذا..

وقد أوضحت سورة (الزمر) هذا الأمر أشد الوضوح..

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

﴿ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا ﴾ = دعا ربه ورجع إليه..

ناب إلى الله = رجع إليه..

﴿ خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ ﴾: خوَّله الشيء: أعطاه إياه متفضلًا..

هذه هي الاستراتيجية..

أن تدعو ربك، فيخولك نعمته..

أن تحصل على ما تريد عن طريق الدعاء..

ولكن..

ما هو الغالب على تصرف الإنسان بعد تطبيقه لهذه الاستراتيجية؟

إنه تصرف عجيب جدًا..

النسيان!!..

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾..

والأنداد كثير..

مثل:

المعارف من الأشخاص والأكابر - الجمال - العقل - العلم - الذكاء - مواهب النفس..

والحقيقة التي قد تخفى على أكثر الناس..

أن كل ما سبق من الأنداد هو من نعم الله على الإنسان..

ولهذا..

يقول الله سبحانه وتعالى ضاربًا المثل للناس:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

فالعلم هو أكثر هذه الأنداد التي قد يغتر بها الإنسان.. وهذه حقيقة..

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠، ٥١].

وهذا ينطبق على (قارون) وأمثاله وعلى علم الثراء القاروني الذي يطبقونه..

ذلك..

ويأتي بيان حقيقة جميع الأنداد..

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الزمر: ٥٢].

فمن الناس من يشاء أن يُبسط الرزق له، ولكن الطريق إلى سعة الرزق بالنسبة لهذا الإنسان لا تكون إلا بالعلم، فيؤتيه الله هذا العلم ليكون سببًا في سعة رزقه..

وآخر يشاء أن يُبسط رزقه، ولكن لا يكون هذا إلا بالمعارف والعلاقات، فييسر الله له هؤلاء المعارف وتلك العلاقات ليكونوا سببًا في سعة رزقه..

وآخر يشاء أن يُبسط رزقه، ولكن لا يُبسط رزقه إلا بالجمال، فيؤتيه الله جمالًا ليكون سببًا في سعة رزقه..

وآخر يشاء أن يُبسط رزقه، ولكن لا يتم هذا إلا بالذكاء، فيؤتيه الله ذكاءً يكون سببًا في سعة رزقه..

وآخر يشاء أن يُبسط رزقه، ولكن لا يبسط رزقه إلا بالمواهب، فيؤتيه الله من المواهب ما يفوق بها أقرانه، ويعرفها في نفسه وهو لا يزال صغير السن، ويوفق له سبل تنميتها وتعهدها ورعايتها، حتى تكون مواهبه سببًا في سعة رزقه..

هذا..

والإنسان قد يُفتَن ويَغتر بكل هذه النعم..

وينسى مصدرها..

الله..

وهذا ليس شكرًا للمُنعِم..

ولا شكرًا للنعمة..

لذلك قال الله سبحانه لمثل هذا الإنسان:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨].

فحتى كفر الإنسان بربه المُنعِم لا يحرمه من التمتع بالنعمة..

ولكنه سيكون استمتاعًا قليلًا..

مرهونًا ببقاءه في الدنيا..

ينتهي بفراقه للدنيا أو بزوال النعمة عنه..

ولا يستمر معه إلى حياته..

في دار الخُلد..

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

سبحانه وتعالى..

هو الباسط، الوهاب، المُغني..

ذلك..

ونأتي إلى جوهر الدعاء..

إنه العبادة..

قال سبحانه:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

من هذه الآية الربانية نعلم يقينًا أن كلمة (عبادتي) معناها (دعائي)..

ويقرر هذا المفهوم الرباني رسول الله عليه الصلاة والسلام..

فعن (النعمان بن بشير) – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال:

"**الدعاءُ هو العبادةُ**". [رواه (أبو داود) و(الترمذي)].

وهنا نقف وقفة تدبر..

فإذا عرف الإنسان أفضل دعاء..

ثم دعا به ربه..

يكون هكذا قد عبد ربه أفضل عبادة..

فما هو أفضل دعاء؟

عن (جابر) رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

"**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله**". [(رواه (الترمذي) و(النسائي) و(ابن ماجة) و(ابن حبان) و(الحاكم)].

وبما أن..

أفضل الدعاء = أفضل العبادة..

إذًا..

الحمد لله = أفضل عبادة..

هذه المعلومات تنقلنا إلى مستوى أعلى من الوعي بحقيقة الوجود..

فمن هذه المعادلة الفذة نعلم عمق قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

الله ما خلقنا إلا لندعوه.. فيستجيب لنا.. فنشكره.. فيزيدنا من فضله.. لنتعرف عليه من خلال نعمه وآياته.. فنعلم يقينًا أنه هو الرب وأنه هو الإله وأنه هو الخالق وأنه هو الرزاق..

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فنتقرب منه سبحانه بشكره..

ودرجة القرب منه سبحانه لها لذة لا يقارنها شيء..

وهذا هو الغنى الحقيقي..

لأنك استغنيت بربك عن من سواه..

(يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) [فاطر: ١٥].

وتستشعر في هذا المقام تلك الكلمات الربانيات التامات..

اللاتي تتردد في السماوات والأرض..

من قبل خلقك..

وحتى يرى كل مخلوق جزاءه في الدار الآخرة:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ١-٣].

تستشعرها.. وتحمد ربك أن هداك السبيل إليه..

فاخترتَ أن تكون شاكرًا..

لتتعرف عليه.. وتتقرب إليه..

وتنهل من خيرات خزائنه التي لا تنفد..

وتتمتع بنعيمه الذي أعده لك..

هذا هو القصد من الخلق..

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

ذلك..

ونختم حديثنا عن هذا المحور من هذه الاستراتيجية الفذة..

بهذا الحديث القدسي الرباني..

وما أجمل أن تتلقى المعلومات الربانية فتعيها.. وتعمل بها..

عن (سعيد بن عبد العزيز)، عن (ربيعة بن يزيد)، عن(أبي إدريس الخولاني)، عن(أبي ذرّ الغفاري جندب بن جنادة) ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا..

يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم..

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم..

يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم..

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم..

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني..

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا..

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا..

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني، فأعطيتُ كلَ واحدٍ مسألته، ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر..

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم.. ثم أوفيكم إياها.. فمن وجد خيرًا فليحمد الله.. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)).

قال الإمام (النووي) - رحمه الله تعالى:

«وروينا عن الإمام (أحمد بن حنبل) - رحمه الله - قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث». أهـ

﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

٢) المحور الثاني: استراتيجية (سبأ) = الشكر..

(وهي الاستراتيجية التي تجعلك تحافظ على ثرائك مع زيادة فرصتك في نماء ثرواتك)

سورة (سبأ) فيها استراتيجية الحفاظ على الغِنَى والثراء..

وضمان استمراره في الدنيا والآخرة..

وهذا ما ذكره القرآن الكريم بكل وضوح في ممكلة (سبأ) التي نشأت ببلاد (اليمن) السعيد..

قال المغني سبحانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ [سبأ: ١٥].

فقَرَن اللهُ سبحانه الشكر بالتمتع بالنعمة.. لكي يستمر هذا الاستمتاع ويستمر ذلك النعيم.. ويزيدا..

ولكن قوم (سبأ) ظنوا أنهم قادرون بأنفسهم على خلق السعادة والاستمتاع..

﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٖ وَأَثْلٖ وَشَيْءٖ مِّن سِدْرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٦، ١٧].

والكفر..

هو السلوك الذي ينشأ لدى الإنسان إذا اعتقد أنه قادر بنفسه على خلق السعادة..

وهو سلوك فردي..

وجماعي أيضًا..

والدليل على هذا هو سلوك أصحاب الترف..

الذين يتكبرون ويطغون بما هم فيه من الغنى والسعة..

في أي حضارةٍ كانوا وفي أي زمنٍ كانوا..

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[سبأ: ٣٤، ٣٥].

وكذلك..

سلوك الرجل صاحب الجنتين..

الذي أوضحته آيات سورة (الكهف) المباركة..

﴿ ۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞۚ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ ﴾[الكهف: ٣٢-٣٦].

وجزاء هذا الكفر هو زوال السعادة..

بفقدان النعمة..

وهذه نتيجة طبيعية..

فالله هو المتفضل بنعمه..

وهو الذي وضع فيها أسباب السعادة والاستمتاع..

وأعطاها للإنسان ليسعد بها..

فلا يحزن الإنسان عندما يعتقد أنه قادر على خلق أسباب السعادة والمتعة بنفسه..

فيجد الله قد وكله إلى نفسه..

فهذا منتهى العدل..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

ذلك..

وهناك مستوى أعلى من كفر الإنسان بنعمة ربه عليه..

ألا وهو أن يظن الإنسان أنه بامتلاكه للنعمة قد خرج عن قدرة ربه عليه..

وهذه أعلى درجات الكفر بالنعمة والمُنعِم..

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٤-٣٩].

عندما تبحث في صفحات المعجم الوجيز لتتبين معنى ﴿يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ تجد عجبًا..

سعى فلانٌ سعيًا: تصرَّف في أي عمل كان..

الآية: العلامة والأمارة – العِبرة – المعجزة[٧٢]..

أعجز الشيءُ فلانًا: فاته ولم يدركه..

إذًا..

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ تعني:

الذين يتصرفون في آياتنا ليخرجوا بها عن قدرتنا عليهم..

أو قد يكون معناها:

الذين يتصرفون في آياتنا وهم يظنون أننا لا نقدر عليهم..

أو تعني:

الذين يتصرفون في آياتنا وهم يعتقدون أن لا مُلك ولا أمر لنا عليهم لقوةٍ أو فضيلة يعتقدونها في أنفسهم..

أو تعني:

الذين استعملوا آيات الله لينالوا بها الخير والمتعة واستغنوا بآيات الله عن الله سبحانه وتعالى..

أو تعني كل ما سبق..

ذلك..

(٧٢) أقول: والآية – أيضًا – هي الشيء المبهر الذي لا مثيل له.. أو الشيء النادر الوجود المتميز.. وكلمة (آية) تعني في أغلب الأحوال قانون كوني، أو سُنة ربانية..انتهى.

وإذا كان جزاء من كفر هو زوال النعمة عنه..

وهذا جزاء دنيوي..

فإن جزاء من سعى في آيات الله معاجز هو جزاء أخروي..

العذاب..

يقول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾ [سبأ: ٥].

نعوذ بالله من زوال النعمة في الدنيا ومن العذاب في الآخرة..

آميـــــــــــن..

عندما يختار الإنسان الكفر فإنه يظلم نفسه..

وماذا عليه لو أنه استمتع وشكر!؟..

وماذا سيضير قوم (سبأ) لو أنهم تمتعوا وشكروا؟

﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ ﴾ [سبأ: ١٥].

هكذا..

بكل بساطة..

حقًا..

إن القاعدة التي صاغها بسطاء الناس: «كُل واشكر» في منتهى الأهمية والخطورة..

المتعة بالرزق يجب أن يعقبه شكر الله على هذا الرزق وهذه المتعة..

والإعراض عن شكر المُنعِم جزاؤه تبديل النعمة وزوالها..

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[الأنفال: ٥٣].

﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[البقرة: ٢١١].

وصدق في (سبأ) قول الله تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢].

وفي هذا مثل لجميع الناس..

في كل مكان وزمان..

ولا زال الخطاب الرباني إلى الناس:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾[النحل: ١١٤].

هكذا يخاطب الرب سبحانه عباده..

ويتودد إليهم جل وعلا..

لعلهم يشكرون..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣].

سبحان الله الودود..

يتودد إلى خلقه بنعمه وفضله..

ومع هذا لا يشكره من عباده إلا القليل..

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

صدق الله..

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَسَ: ١٧].

لهذا..

القليل فقط من الناس تتنامى ثرواتهم ولا تزول..

لأنهم شاكرون..

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ذلك..

وقد جمعت آية واحدة بين مكونى هذه الاستراتيجية الفذة..

استراتيجية سبأ / الزمر..

وهي قول الله تعالى:

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦].

العبادة والشكر..

وهما الوسيلة الوحيدة لتناول الخير والسعادة..

والاستمتاع بهما..

والاستكثار منهما في الدنيا والآخرة..

حقًا..

إذا بحثتَ في أسرار الكون..

ستندهش فعلًا أنها دائمًا بهذه البساطة وهذا الوضوح منذ خلقها الله وحتى انقضاء الدنيا..

ولكن دهشتك ستتضاعف..

عندما تجد أن أكثر الناس لا يعلمونها..

خلاصة الباب:

الحقيقة الأولى للوجود البشري هي أن الله قد خلق الإنسان ليُمتِّعه.. ويسَّر له سبيلًا إلى هذا الاستمتاع.. ألا وهو الدعاء.. وهذه منزلة اتفق عليها الناس كلهم على اختلافهم.. ثم افترقوا بعدها في خصلتين.. في إحداهما جماع الصواب.. وفي الأخرى جِماع الخطأ.. هما: الشكر والكفر.. مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] .. فالإنسان إذا أراد شيئًا دعا ربه ليناله.. فإذا نال ما أراد فهو بين أمرين.. إما أن يكفر بربه وبنعمته عليه.. فيتمتع بما ناله.. ولكن هذه المتعة تكون قليلة.. لأنها تنتهي بعمر الإنسان في دار الدنيا الفانية.. وإما أن يشكر ربه ويشكر نعمته عليه.. فيتمتع بما ناله.. ولا يزال يتقلب من نعمة إلى أخرى.. ويزداد من درجات الاستمتاع في الدنيا.. حتى ينتقل إلى الدار الآخرة الباقية.. فيجد هناك ما لا عين رأت.. ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.. ولا علمت نفس ما أخفاه الله لمن شكره من قرة عين.. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٠-٢٢].. فيصل الإنسان الشاكر إلى أقصى درجات الاستمتاع في جوار ربه سبحانه..

والحمد لله رب العالمين..